مختصر

الطريق إلى الألفة الإسلامية

ومختصر التعايش الإنساني

والتسامح الديني

تأليف

عبد الفتاح بن صالح قديش اليافعي

مقدمة المختصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فقد لاقى كتاب (**الطريق إلى الألفة الإسلامية**) -الذي قدم له أربعة وعشرون شيخا، من بلدان مختلفة ومذاهب مختلفة- استحسانا ورواجا عالميا ونفع الله به كثيرا ولله الحمد، ونحو ذلك حصل تجاه كتاب (**التعايش الإنساني والتسامح الديني في الإسلام**) وتم عرض محتواهما في كثير من الفعاليات من حلقات تلفزيونية وإذاعية ومؤتمرات ودورات وندوات ومحاضرات ومقالات في الصحف والمجلات وغير ذلك من الفعاليات.

وقد طلب مني بعض الأفاضل أن اختصر الكتابين ليترجما وينتفع بهما بشكل أوسع فلبيت طلبه رجاء أن يحصل النفع بالمختصر والترجمة كما حصل بالأصل وأكثر إن شاء الله.

والآن إلى المختصر

أولا: مختصر
الطريق إلى الألفة الإسلامية
مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد: فقد ذكَرَت مجلة المجتمع الكويتية في عددها (٧٩٠) أن ريتشارد ميتشل ذكر في خطابه لرئيس الخدمة السرية في المخابرات الأمريكية عدة توصيات لغزو المسلمين فكريا، **وذكر من ضمن التوصيات: تعميق الخلافات المذهبية والفرعية وتضخيمها في أذهانهم) اهـ**

لقد كانت سياسة الاستعمار في المسلمين -ولا زالت- هي: (فرّق تسُد)، ولقد أفلح أعداء الإسلام في تفريق الأمة وفي تحقيق مخططاتهم،[1] فلا يخفى على أحد ما آل إليه حال المسلمين من التفرق والتشرذم والتمزق والاختلاف والتناحر على كافة الأصعدة:

فعلى الصعيد السياسي: هناك أكثر من خمسين دولة، كثير منها في خلافات ونزاعات، بل وتقوم أحيانا الحروب فيما بينها على أتفه الأسباب، وتلك دولة تتحالف مع دولة كافرة ضد دولة مسلمة، والآخر مع أخرى كافرة.. وهكذا.

وعلى الصعيد الفكري: هناك توجهات فكرية كثيرة مختلفة فيما بينها، وهناك جماعات دعوية كثيرة مختلفة، وهناك مذاهب عقدية وفقهية كثيرة كذلك، يصل الحال أحيانا ببعضهم إلى حد التكفير والاقتتال كما لا يخفى، وما شأن العراق عنا ببعيد.

---

(١) لست أؤمن بنظرية المؤامرة ولكني مع ذلك لا أشك في أن لأعداء الإسلام دورا كبيرا في تفريق المسلمين وتمزيقهم، ولا شك أن هناك أيضا عوامل داخلية من المسلمين أنفسهم

وعلى الصعيد الاجتماعي: هناك في كثير من البلدان: قبائل كثيرة متناحرة متدابرة وأحيانا متقاتلة، وعلى المستوى الأسري والشخصي نجد الاختلافات والخصومات على قدم وساق، تعرف ذلك بدخول أي قسم شرطة أو أي مبنى محكمة.

حالة يدمى لها القلب، وينفطر لها الفؤاد، وتبكي لها العين، ويندى لها الجبين، والنتيجة الحتمية هي بلا شك الفشل وذهاب الريح (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فأدى ذلك إلى تكالب الأعداء علينا، وصرنا أضعف الأمم نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

ولقد حذرَنا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله [1] وسلم من التفرق والاختلاف، في آيات وأحاديث كثيرة، ولا داعي لذكرها لأنها أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

وليس المراد بهذا البحث المجال السياسي أو المجال الاجتماعي، بل المجال الفكري فإنه أكثر المجالات اختلافا [2]، فالخلاف فيه يثار على الدوام بمناسبة وبغير مناسبة، وتبذل في ذلك الخلاف الأموال والأوقات والجهود الضخمة التي لو بذلت فيما هو أولى لكان الحال غير الحال، والمصيبة أن هذا الاختلاف حاصل باسم الدين فكل طرف يدعي أن ما يفعله هو من صميم الدين وهو الحق المطلق، وكان للجهل دور في توسيع دائرة الخلاف وصدق أبو حامد الغزالي [3] عندما قال في كتابه فيصل التفرقة ص٩٢: (إن التحدي بالعلوم غريزة في

---

(١) التزمت في بحثي هذا الصلاة على الآل مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمره صلى الله على وآله وسلم بذلك في الصلاة الإبراهيمية، ومما يجدر التنبيه عليه أني أكتب الصلاة على الآل في كل ما أحكيه من النقول حتى ولو كان المنقول عنه لم يذكر الصلاة على الآل.

(٢) حتى إنك لتجد في البيت الواحد الانتماءات الفكرية المختلفة، وهذا حاصل في الحاضر والماضي، قال ابن عائشة: كان للحسن بن قيس بن الحصين: ابنٌ شيعي وابنةٌ حرورية وامرأة معتزلية وأخت مرجئية وهو سني جماعي، فقال لهم ذات يوم: أراني وإياكم طرائق قددا) اه ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص٣١٣، والتاريخ يعيد نفسه.

(٣) تنبيه مهم: كنت في أول الأمر أذكر ألقاب من أنقل عنهم فأقول مثلا في الغزالي: قال حجة الإسلام، فقال لي بعض من قرأ البحث لماذا ذكرت فلانا بلقب كذا ولم تذكر فلانا بلقب كذا؟ ثم بعد ذلك التزمت في بحثي هذا إسقاط الألقاب إلا إذا كان اللقلب مذكورا من **قِبَلِ غيري، وذلك حتى لا أثير**

الطبع لا يصبر عنه الجهال، ولأجله كثر الخلاف بين الناس، ولو ينكث من الأيدي من لا يدري لقل الخلاف بين الخلق)اهـ ومثله قول سقراط: (لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف) اه قواعد التحديث للقاسمي ص٣٨٩

(ولا يزعجني أن يكون في أمة الإسلام مدارس أو فصائل أو جماعات، لكل منها منهجه في خدمة الإسلام والعمل على التمكين له في الأرض، وفقا لتحديد الأهداف وترتيبها وتحديد الوسائل ومراحلها، والثقة بالقائمين على تنفيذها من حيث القوة والأمانة أو الكفاية الإخلاص.

إنما يزعجني ويؤرقني ويذيب قلبي حسرات أن تعادى أمة الإسلام نفسها، وأن يكون عدوها من داخلها، وأن يضرب بعضها بعضا، ويكيد بعضها لبعض، وأن يكون بأسها بينها) [1]

وهذا البحث هو عبارة عن محاولة لتأصيل الطريق إلى الألفة بين المسلمين تأصيلا علميا، وقد حاولت فيه الاختصار وذلك حتى تتسنى قراءته للكل، خصوصا ونحن في زمن ضعفت فيه الهمم، وأرجو ألا يكون اختصاري مخلا، ولا أزعم أني سأعطي الموضوع حقه بل ولا عشر معشار ذلك، ولكنها نفثة مصدور وآهة متوجع ولوعة متألم على حال المسلمين، وحسبي أني خطوت خطوة في الطريق إلى الألفة بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم الفكرية (العقدية والفقهية والدعوية)

وأنا على يقين من أن العقلاء والمعتدلين من كل طائفة -وهم مقصدي وهم كثُر- سيرحبون بهذا البحث ويضعونه في الاعتبار، وأن الغلاة من كل طائفة سيرفضون الفكرة من

تحسس المخالف لصاحب اللقب، ولأن كل فريق لا يقبل لأصحابه إلا الألقاب العالية، وفي المقابل لا يقبل لمخالفه ذلك.

(١) اقتباس من (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) للدكتور القرضاوي ص٥ بتصرف.

أساسها وسيشنعون على صاحب البحث، وقد يكون الدافع لهم حسنا، ولكن..كم من مريد للخير لا يدركه.

قال القاسمي في رسالته في الجرح والتعديل ص٤: (من المعروف في سنن الاجتماع أن كل طائفة قويَ شأنها وكثر سوادها لا بد أن يوجد فيها الأصيل والدخيل والمعتدل والمتطرف والغالي والمتسامح، **وقد وجد بالاستقراء أن صوت الغالي أقوى صدىً وأقوى استجابة، لأن التوسط منزلة الاعتدال ومن يحرص عليه قليل في كل عصر ومصر، وأما الغلو فمشرب الأكثر ورغيبة السواد الأعظم وعليه درجت طوائف الفرق والنحل**) اهـ

بين يدي البحث :
ولا يزالون مختلفين

إن وجود الفروق الفكرية بين مذاهب المسلمين أمر واقع وإنكاره يعد سفسطة، وليس مرادنا هو إنكار وجود تلك الفروق، أو الادعاء أنها كلها فرعية، ولا مرادنا أن يتنازل البعض عن مذهبه بغير قناعة، وليس المراد أيضا هو توحيد الأمة على رأي واحد، فهذا مستحيل لأسباب كثيرة منها اختلاف الأفهام والمدارك والميول والعقول، ولأن الإرادة الإلهية اقتضت أنه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ الآية [هود: ١١٨]

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة ج٢/ ص٥١٩: (ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية...)اهـ.

بل مرادنا أن نقول: إن الطريق إلى الألفة الإسلامية يمر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تصحيح التصور: بأن نتصور الآخرين -المخالفين لنا - التصور الصحيح لأن كثيرا من المسائل المختلف فيها لم يتصورها بعضنا عن بعض التصور الصحيح

والمرحلة الثانية: تصحيح الحكم: بأن نحكم على المسائل المختلف فيها وعلى أصحابها الحكم الصحيح لأن كثيرا من المسائل المختلف فيها لم يحكم بعضنا على بعض فيها الحكم الصحيح

والمرحلة الثالثة: تصحيح المعاملة: بأن نتعامل مع المخالفين لنا التعامل الصحيح لأننا في كثير من الأحيان لا يتعامل بعضنا مع بعض التعامل الصحيح

المحور الأول: تصحيح التصور عن الآخر

المبحث الأول: تصحيح النقل

تصحيح التصور له ركنان: الأول: تصحيح النقل، والثاني: تصحيح الفهم، ولنبدأ بالحديث عن الركن الأول (تصحيح النقل) في الفروع التالية:

الفرع الأول: نماذج من النقل الخاطئ

النموذج الأول: أبو حنيفة والأوزاعي

روى الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٣٣٨ بسنده إلى: (عبد الله بن المبارك قال: قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي: يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة؟! فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئت يوم الثالث وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم والكتاب في يدي

فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر في مسألة منها وقّعت عليها: قال النعمان، فما زال قائما بعد ما أذن حتى قرأ صدرا من الكتاب ثم وضع الكتاب في كمه ثم أقام وصلى ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها فقال لي: يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا؟ قلت: شيخ لقيته بالعراق، **فقال: هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه، قال : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه!!) اهـ.**

وفي رواية أخرى ذكرها الكاندهلوي في شرحه على الموطأ ١/ ٨٨: (أن ابن المبارك قال: ثم التقينا بمكة فرأيت الأوزاعي يجاري أبا حنيفة في تلك المسائل والإمام يكشف له بأكثر مما كتبت عنه

فلما افترقنا قلت للأوزاعي: كيف رأيته؟ قال :غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه!)اهـ.

لقد كان الإوزاعي –على جلالته– قبل أن يعرف حال أبي حنيفة جائرا عليه في الحكم فوصفه بالمبتدع، بل وكان الأوزاعي يقول: (**ما ولد في الإسلام مولد أشر من أبي حنيفة**) اه السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ١٨٧، وكان يقول أيضا: (**أبو حنيفة ينقض عرى الإسلام عروة عروة**)اه السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ١٨٦،كل هذا بسبب البلاغات الخاطئة، لكن الأوزاعي بعدما قرأ كلام أبي حنفية وجالسه غيّر رأيه فيه بل ومدحه وأثنى عليه وحث على الاستكثار من علمه

إن المنهج القرآني يدعو إلى التثبت والتحقق والتأكد من صحة المعلومات قبل نسبتها لأحد وقبل الحكم عليه، قال تعالى: (يا أيها الذي آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وقد يكون الذي جاء بالنبأ ليس بفاسق لكن مصدره فاسق، وقد يكون اعتمد على مجهول وقد يكون غير ضابط للخبر... الخ

وقد ينتشر الخبر الكاذب ويشتهر ويتحدث به الناس،كما اشتهر عند مشركي العرب أن النبي ﷺ كاهن وساحر، بل قد ينتشر الخبر الكاذب في الأوساط الإسلامية ويتحدث به بعض الصالحين عن غفلة كما حصل في قصة الإفك مع السيدة عائشة رضي الله عنها ونزلت في ذلك الآيات التي تدعوا إلى التثبت وحسن الظن وعدم الخوض فيما يشاع (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) .. فيجب علينا أن نأخذ الدروس والعبر من هذه الحادثة وما أكثرها.

إن النقل الخاطئ يؤدي بلا شك إلى التصور الخاطئ والتصور الخاطئ بلا شك يؤدي إلى الحكم الخاطئ (فالحكم على الشيء فرع عن تصوره) والحكم الخاطئ بلا شك يؤدي إلى التعامل الخاطئ، والتاريخ يعيد نفسه فهذه القصة (الأوزاعي وأبو حنيفة) ليست حادثة عينٍ شاذة ونادرة، بل تمثل واقعا مريرا مرت به الأمة الإسلامية ولا زالت تمر به، وهو بناء التصور وإصدار الأحكام من قبل الزعامات العلمية والفكرية اعتمادا على مجرد البلاغات الخاطئة، وتلك البلاغات والأحكام حتما تنتقل إلى الأتباع والقواعد فتتسبب في الخلافات والنزاعات والخصومات والتكفير بل والاقتتال أحيانا.

النموذج الثاني :
الهيثمي وابن خلدون

ذكر ابن حجر عن شيخه الهيثمي أنه كان يلعن ابن خلدون ويسبه بسبب مقالة بلغته عنه، قال ابن حجر في كتابه رفع الإصر ٢/ ٢٤٧: (وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن يبالغ في الغض من ابن خلدون **فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لي أنه بلغه!!! أنه ذكر الحسين بن علي** رضي الله عنهما في تاريخه فقال: قتل بسيف جده، **ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكي!!.**

قلت [القائل هو ابن حجر]: ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن وكأنه كان ذكرها في النسخة التي رجع عنها!!!)اهـ.

وقد تتابع أهل التواريخ وخصوصا المصريون منهم على اتهام ابن خلدون بالنّصْب بسبب هذه الكلمة، وعند الرجوع إلى المصدر الأصلي نجد أن ابن خلدون إنما حكى تلك الكلمة في مقدمة تاريخه عن ابن عربي المالكي، فهي من منقولِهِ لا من قوله، وقد حكاها على سبيل الذم والتخطئة فقال في مقدمته ص٢٠٥: (**وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا** فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه: إن الحسين قتل بشرع جده، **وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل**، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!) انتهى كلام ابن خلدون .

فانظر كيف يُنسب إلى الرجل ما لم يقله بل ما يقول بضده وينتقد قائله، ويُلعن ويُسب، كل ذلك بسبب البلاغات الخاطئة، وصدق الشاعر حيث قال:

هداك الله يا تاريخُ يا شيخَ ... فما أقدرَ كفّيكَ على نسجِ

الأضاليلِ ... الأباطيلِ

تُحابي الحيّ أو تظلمُ يا تاريخُ ... فما مثلكَ مأمونٌ على أخبارِ

ولعل الذي نقل ذلك للهيثمي قرأ كلام ابن العربي المحكي في مقدمة ابن خلدون دون أن ينظر فيما قبله وفيما بعده فظنه من قول ابن خلدون لا من منقوله، هذا إن أحسنا الظن بالناقل، فحق لنا أن نتأمل قول ابن الوزير في العواصم ٥/ ٢٠٩: (**وإذا نقلت مذاهبهم فاتق الله في الغلط عليهم ونسبة ما لم يقولوه إليهم**، واستحضر -عند كتابتك ما يبقى بعدك- قولَه تعالى: (ونكتب ما قدموا وآثارهم) فلا تكتب بكفك غير شيء *** يسرك في القيامة أن تراه)اه

الفرع الثاني : من وسائل تصحيح النقل عن الآخر

المسألة الأولى : تمحيص ما ينقل في كتب التاريخ والتراجم والفرق

من المؤسف أنّ كثيرا ممن قام بتدوين عقائد الملل لم يتجرّد عن أهوائه وميوله ومصالحه الشخصية وغلبت نزعاته وعواطفه الدينية وتعصّباته الباطلة، فترى أنّ كثرا منهم يكتب عقيدة نحلته بشكل مرغوب منمّق ويحاول أن يصحّح ما لا يصحّ ولو بتحريف التاريخ وإنكار المسلّمات

وأمّا إذا أراد الكتابة عن عقائد الآخرين فلا يستطيع أن يكن عداءه لها، ولهذا يحاول أن يعرضها بصورة مشوّهة، فيأتي في غضون كلامه بنسب مفتعلة وآراء مختلقة وأكاذيب جمّة نزولاً على حكم العاطفة الدينية الكاذبة، أو اعتماداً على الكتب التي لا يصحّ الاعتماد عليها، أو تساهلاً في ضبط العقائد والمذاهب، إلى غير ذلك من العوامل التي صارت سبباً لحيرة الأجيال المتأخّرة في مجال التعرّف على عقائد الأقوام والملل، وضلالها وإساءة الظن فيها. وأخصّ من بين تلك العوامل، الاكتفاء في تبيين عقائد قوم بالرجوع إلى كتب خصومهم وأعدائهم، وهذا داء عمّ كثير من مؤرّخي العقائد والنحل) [1] .

---

(١) اقتباس من (بحوث في الملل والنحل) للسبحاني ج١/ ص ٩ بتصرف

وأنت إن قرأت تراث كل فرقة على حدة تحسب أنه لا يوجد في الأمة الإسلامية إلا أهل الإيمان والصلاح والتقوى بحيث لا تشك بأنهم جميعا من أهل الجنة، وإن أنت قلبت الصفحة وقرأت قراءة ثانية من خلال موقف كل فرقة من الفرق الأخرى تخلص إلى أن جميع المسلمين كفار وأنهم جميعا من أهل النار [1].

إن التاريخ يكتبه في الغالب الأقوى والمنتصر، والمؤرخ في الغالب يمزج فكره ومشاعره بتاريخه، وليس مقصدنا القدح في كتب التاريخ فهذا منزلق خطير، لكن النماذج السابقة وما شابهها تدعونا إلى أن لا نسلّم بكل ما نقرأه في كتب التاريخ والتراجم والفرق بل لا بد من التمحيص والتحقق والتأكد، فقد يكون سبب الطعن هو اختلاف المذهب أو المقارنة مع الحسد وغير ذلك، قال التاج السبكي في كتابه قاعدة في الجرح والتعديل والمؤرخين ص٥٩: (**إن أهل التأريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا من أناس، إما لتعصب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به** أو لغير ذلك من الأسباب، والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب قل أن رأيتُ تاريخيا خاليا من ذلك)اهـ.

ويؤيد ما قاله التاج السبكي ما في وفيات الأعيان ١/ ١٢: من أن أبا إسحاق الصابئ صاحب الرسائل كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة كان قد أمره عضد الدولة البويهي أن يصنع له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية، فعمل له (الكتاب التاجي)، وذكر ابن خلكان: أن صديقا للصابئ دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض فسأله عما يعمل؟ **فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب أُلفقها**)اهـ.

فلا بد إذن من التمحيص والتدقيق قال القاسمي: (**إن قاعدة المحققين هي عدم البت في أمر تاريخي إلا بعد تعرفه من أطرافه ومراجعة عدة أسفار** للوقوف على كنهه وحقيقته والإشراف على غثه وسمينه ووزنه بميزان العقول السليمة والقواعد الاجتماعية المعقولة كما

---

(١) اقتباس من (البعد الحضاري للعقيدة الإباضية) للدكتور فرحات الجغبيري ص٣٤-٣٥

أشار إلى ذلك الإمام ابن خلدون في مقدمته)اهـ.[1]

وقال ابن حجر في مقدمة الفتح (ج ١/ ص ٤٢٧) في سياق الكلام عن عكرمة: (وقد برأه أحمد والعجلي من ذلك [أي رأي الخوارج] فقال في كتاب الثقات له: عكرمة مولى بن عباس رضي الله عنهما مكي تابعي ثقة بريء مما يرميه الناس به من الحرورية .

وقال بن جرير: **لو كان كل من ادعى عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادعى به وسقطت عدالته وبطلت شهادته بذلك للزم ترك أكثر محدثي الأمصار، لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه**)اهـ.

وقال ابن حجر في مقدمة الفتح أيضا (ج ١/ ص ٣٨٢): (**واعلم أنه قد وقع من جماعةٍ الطعن في جماعة بسبب اختلافهم في العقائد فينبغي التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق**)اهـ.

وقال التاج السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (ج ٣ / ص ٦): (**ومما ينبغي أن يتفقد عند الجرح حال العقائد واختلافها بالنسبة إلى الجارح والمجروح فربما خالف الجارح المجروح في العقيدة فجرحه لذلك وإليه أشار الرافعي بقوله : وينبغي أن يكون المزكون برآء من الشحناء والعصبية في المذهب خوفا من أن يحملهم ذلك على جرح عدل أو تزكية فاسق، وقد وقع هذا لكثير من الأئمة جرّحوا بناء على معتقدهم وهم المخطئون والمجروح مصيب**)اهـ.

المسألة الثانية: الأخذ من عين مصادر الآخر لا الوسائط

ما سبق يحتم علينا أن نأخذ من عين مصادر الآخر لا الوسائط لأن الوسائط قد تعتمد على وسائط أخرى أو على فهمها أو يكون بين الواسطة وبين المتكلَّم فيه عداوة أو حسد أو خلاف في المذهب... إلخ، قال الصنعاني في إيقاظ الفكرة ص٤٦: (الناس تبع لما ألفوه من اتباع الآباء بمجرد تقليدٍ وهوى، ومن نظر من العلماء فهو:

---

(١) مجلة المنار ١٦/ ١/ ٣٠.

إما مِن راكدي الهمة فيقصر نظره على ما دونه أسلافه من الكتب، الحاكمين فيها لمقالتهم بعنوان: (**أهل الحق – الفرقة الناجية – أهل العدل والتوحيد – أهل السنة والجماعة**) إلى غير ذلك من العبارات المرونقة، ولمقالات غيرهم بعنوان: (**المشبهة – القدرية – الجبرية – الرافضة**) وغير ذلك من أسماء سموهم بها.

ثم يجيء المتلقون بعد ذلك **فينقلون أقوال خصومهم من تلك الكتب** التي قد حكيت فيها أقوال خصومهم على خلاف ما قالوه **وينسبون ذلك إليهم وهم منه براء**، ويحكون أدلتهم بعنوان: (حجتنا – برهاننا – دليلنا) وحجة من قابلهم بـ(الشبهة – المتمسك) وقد يحذفون منها ما هو مغزى الاستدال لئلا تنفق في سوق المناظرة .

ثم يجيء المؤلف بعد ذلك فينقل **أقوال خصومهم من تلك الكتب التي قد حكيت فيها مذاهبهم على خلاف ما قالوه، ونسبةُ ذلك إليهم وهمٌ واضح، ويبني الرد عليهم على تلك العبارات فيزداد الشر وينمو، ويربوا الباطل ويعلو.**

فإذا نظر ذلك القصير الهمة الجامد الذهن في تلك الأساطير جعلها عنوان الاعتقاد وأنزلها في أشرف منازل الفؤاد، **فلو يؤتى بالله والملائكة قبيلا على أن ينصف في النظر ويأخذ كلام الناس من معادنه أو يترك تقليد أشياخه وآبائه ويكتفي بالبراءة الأصلية** وبالنظر إلى الكتاب والسنة ما زاده ذلك إلا تشددا فيما هو فيه.

وإما أن يكون الناظر من ذوي الهمة والذكاء فيطلع على مآخذ الناس من الكتاب والسنة ويظهر على الحق مع من كان، **فيطرح ما ظهر له من الحق ويعود إلى الآباء إلا القليل بل الأقل من القليل**، ورجع يدندن حول تلك الأساطير وينفقها في سوق التدريس، فإذا صك ذهنه آية أو حديث يناديان **على خلاف ما قرره الأسلاف استروح لتأويلها** ولو بتأويل يرده اللفظ ويأباه السياق) انتهى [1]

فإذا اطلعنا على الخبر من المصادر الأصلية فلا عبرة بما في الوسائط من سوء النقل ونحوه، ومن العجب أن تجد من يكذّب الأصلَ ويرد خبَرَه ويعتمد على الوسائط مع نفي

---

(١) كلام الصنعاني بتصرف يسير

الأصلِ لما في الوسائط وقد حصل للفقير شيء من ذلك فنَسَبَ إليّ بعضُهم أشياء لم أقلها، اعتمادا منه على الوسائط مع نفيي لتلك الأمور.

وهذه قصة عجيبة تجسد لنا هذا الأمر، ففي الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٥/ ٣٩٤: (قال عبد الله بن أحمد: لما قدم داود الظاهري من خراسان جاءني فسلم علي فسلمت عليه فقال لي: قد علمت شدة محبتي لكم وللشيخ. **وقد بلغه عني كلام فأحب أن تعذرني عنده وتقول له: إن ليس هذا مقالتي أو ليس كما قيل لك**. فقلت: لا تريد؟ فأبى!

فدخلت إلى أبي فأخبرته أن داود جاء وقال: إنه لا يقول بهذه المقالة وأنكر. قال: جئني بتلك الإضبارة [الكتب] فأخرج منها كتابا فقال: هذا كتاب محمد بن يحيى النيسابوري وفيه أنه -يعني داود الأصبهاني- أحل في بلدنا الحال والمحل. وذكر في كتابه أنه قال: القرآن محدث، **فقلت له إنه ينكر ذلك. فقال: محمد بن يحيى أصدق منه لا نقبل قول عدو الله!!!)اهـ.**

فهذا أحمد يكذب داود الظاهري ويرد خبره ويغلظ في وصفه ويسميه عدو الله مع أنه صاحب الشأن وهو أدرى بما قال .

المسألة الثالثة:

من وسائل تصحيح التصور: عدم تعميم الخاص

ولتعميم الخاص صور:

الصورة الأولى:

أن تُنسب إلى طائفة معينة أقوال بناء على أن فردا أو بعضا من تلك الطائفة قالوا بذلك القول، وهذا من الظلم الظاهر فإن المنهج القرآني هو: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، نعم إذا كان بقية الأفراد مقرين بذلك مصرحين فلا بأس في أن ننسب ذلك إليهم، ويدخل في ذلك أن يُنسب إلى طائفة قول لوجود هذا القول في مصادر غير معتمدة عند تلك الطائفة بل أحيانا قد ينصّون على عدم الاعتماد على تلك المصادر

الصورة الثانية من صور تعميم الخاص :

أن يتصور البعض أو يظن نسبة شخص أو طائفة إلى فرقةٍ معينة لأنهم يقولون ببعض قول تلك الطائفة فمثلا يقال: فلان جهمي أو فلان معتزلي...إلخ مع أنه إنما وافقهم في بعض أقوالهم، بل أحيانا قد يكون قال ما هو مشترك بينهم وبين طائفته أو بعض المنتمين لطائفته [1]

ومن الأمثلة على هذه الصورة في الأشخاص:

ذكر ابن حجر في لسان الميزان ١/ ١٧٠ في ترجمة إبراهيم بن عبد العزيز الأصبهاني : (عن أبي الشيخ وأبي نعيم: أن إبراهيم هذا قعد للتحديث فـأخرج الفضائل فأملى فضائل أبي بكر ثم عمر **ثم قال: نبدأ بعثمان أم بعلي؟! فقالوا: هذا رافضي فتركوا حديثه!!!**

قلت [القائل هو ابن حجر]: وهذا ظلمٌ بيّنٌ فان هذا مذهب جماعة من أهل السنة، اعني التوقف في تفضيل أحدهما على الآخر، وإن كان الأكثر على تقديم عثمان بل كان جماعة من أهل السنة يقدمون عليا على عثمان منهم سفيان الثوري وابن خزيمة)اهـ.

وقد تشتهر نسبة قول ما إلى طائفة مع أنهم بخلاف ذلك أو يكون قول بعضهم فقط، وما أحسن قول المعلمي في كتابه رفع الاشتباه ص٧٦: (إن اشتهار أن القول قول أهل السنة جميعهم قد يكون غير صحيح ويكون جماعة من أهل السنة على خلافه، **بل قد يكون القول الذي زعموا أنه قول أهل السنة إنما هو قول طائفة من المتأخرين ويكون قول سلف هذه الأمة – الذي هم أهل السنة على الحقيقة – على خلافه**)اهـ.

ومن صور تعميم الخاص:

أننا نجد البعض إذا رأى طائفة ما قد أصابت في مسألة أو مسائل ظن أنها مصيبة في بقية المسائل التي تخالف فيها بقية الطوائف، وبالعكس نجد البعض إذا رأى طائفة ما قد

---

(١) وهذه الصورة لها أيضا صلة بالمحور الثاني من محاور البحث (تصحيح الحكم) لأن نسبة شخص أو طائفة إلى فرقة معينية لموافقتهم لهم في بعض قولهم كما أنه من الخطأ في التصور هو من الخطأ في الحكم أيضا

أخطأت في مسألة أو مسائل ظن أنها مخطئة في بقية المسائل التي تخالف فيها بقية الطوائف، ولا شك أن هذا خطأ بين، وسيأتي الكلام عن ذلك مفصلا عند الكلام عن التجرد والعدل والإنصاف في الحكم على الآخرين لأن لهذه الصورة صلة واضحة في تصحيح الحكم.

ومن صور تعميم الخاص أيضا:

أن البعض إذا رأى أحدا يثنى على شخص ما فيما يستحق عليه الثناء وكان هذا الشخص ينتمي إلى طائفة غير طائفته أو كان عند هذا الشخص أخطاء أخرى، نجده يقول: فلان يثني على الطائفة الفلانية أو يثني على فلان وفيه كذا وكذا من الأخطاء، بل أحيانا يُنسب الشخص بذلك إلى تلك الطائفة مع أنه إنما أثنى على بعض أفرادها وفي بعض ما عنده فقط، أو يحمَّل أخطاء الشخص الذي أثنى عليه، وهذا خطأ بل لو فرض أنه أثنى على بعض ما في الطائفة الأخرى فلا يجوز لنا أن ننسب إليه الثناء على كل ما عندها أو ننسبه إليها.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني: تصحيح الفهم

الفرع الأول: تصحيح الفهم عن الآخر فرض

إن فهم الآخر كما يقصد ويريد لا كما نريد، ليس هو نافلة من القول بل هو حق واجب سواء كان الآخر كافرا أم مسلما سنيا أم شيعيا سلفيا أم صوفيا حنبليا أم أشعريا ..إلخ، قال أبو حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال ص٤١: (**لقد علمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية**)اهـ.

وأحيانا قد يُشْكِل علينا بعض كلام الآخر فلا نفهمه، أو يكون محتملا لعدة وجوه فيجب علينا حينئذ مراجعته هو لفهم كلامه المشكل على حسب ما يريد هو، ولا نفسره بحسب ما نهوى نحن، قال ابن الوزير في إيثار الحق ص٤٠٤: (**قد يدق مراد المخالف ويخفي جدا ويحتمل الوقف فيفسر بما لم يقصده** ... وكم يَختلف أتباع العالم في كثير من مقاصده ويلزم

ما لم يقصده،كما يُختلف في كثير من الآيات والأحاديث... فإذا تقرر هذا فمن العجب تكفير كثير ممن لم يرسخ في العلم لكثير من العلماء **وما دروا حقيقة مذاهبهم، وهذه هذه! وما يعقلها إلا العالمون**)اهـ.

وإذا كان الكلام يحتمل معنى حسنا ومعنى قبيحا فالواجب هو حمل الكلام على أحسن المحامل ما أمكن ما لم يفصح المتكلم عن المعنى القبيح، روى ابن عساكر في تاريخه ٤٤/ ٣٥٩ بسنده: عن عكرمة قال: قال عمر بن الخطاب: (**لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير مدخلا، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك**)اهـ.

الفرع الثاني : نماذج من الفهم الخاطئ

الإمام ابن حبان:

فهم بعضهم من قول ابن حبان: (النبوة هي العلم والعمل) أنه يقول إن النبوة مكتسبة ولم يكتفوا بذلك الفهم بل كفروه لأجل فهمهم ذاك واستباحوا دمه ففي سير النبلاء أيضا ١٦/ ٩٦: (قال أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري مؤلف كتاب (ذم الكلام): سمعت عبد الصمد بن محمد بن محمد، سمعت أبي يقول: **أنكروا على أبي حاتم بن حبان قوله: (النبوة: العلم والعمل)، فحكموا عليه بالزندقة وهجر وكتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله.**

قلت [القائل هو الذهبي]: **هذه حكاية غريبة، وابن حبان من كبار الأئمة، ولسنا ندعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يعتذر عنه .**

فنقول:لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، ونظير ذلك قوله – عليه الصلاة والسلام –: (الحج عرفة) ومعلوم أن الحاج لا يصير بمجرد الوقوف بعرفة حاجا، بل بقي عليه فروض وواجبات، وإنما ذكر مهم الحج. وكذا هذا ذكر مهم النبوة إذ من أكمل صفات النبي كمال العلم والعمل، فلا يكون أحد نبيا إلا بوجودهما، وليس كل من برّز فيهما نبيا لأن النبوة موهبة من الحق تعالى لا حيلة للعبد في اكتسابها بل بها يتولد العلم اللدني والعمل الصالح،

وأما الفيلسوف فيقول النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل **فهذا كفر ولا يريده أبو حاتم أصلا وحاشاه**)اهـ.

الذهبي والمقبلي والصنعاني:

اتُّهِمَ الذهبيُ بالنصب من قِبَل الصنعاني في شرح التحفة العلوية ص١٦٤ومن قِبَل المقبلي في الأرواح النوافخ ص٣٩٦، **وفَهِمَا ذلك من كلمة قالها الذهبي في حق سيدنا الحسين رضي الله عنه فقد قال الذهبي عن الحسين بن علي رضي الله عنهما: (أنف من البيعة ليزيد وكاتبه أهل الكوفة فاغتر وفي قصته طول)**اهـ.

ولا شك أن الذهبي بريء من النصب، لكن لا شك أيضا أن للبيئة الشامية دورا في طريقة كلامه عن الحسين رضي الله عنه، والإنسان ابن بيئته إلا العزيز النادر، وذلك العزيز النادر من النادر أن يتحرر التحرر التام من بيئته بل الغالب بقاء الرواسب، وقد قال الذهبي نفسه في سير أعلام النبلاء ٣/١٢٨: (وخلْفَ معاوية خلقٌ كثير يحبونه ويتغالون فيه ويفضلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، **وإما قد ولدوا في الشام على حبه وتربى أولادهم على ذلك**، وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة وعدد كثير من التابعين والفضلاء وحاربوا معه أهل العراق **ونشؤوا على النصب نعوذ بالله من الهوى** .

كما قد نشأ جيش علي رضي الله عنه ورعيته – إلا الخوارج منهم – على حبه والقيام معه وبغض من بغى عليه والتبري منهم وغلا خلق منهم في التشيع، **فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم لا يكاد يشاهِد فيه إلا غاليا في الحب مفرطا في البغض؟ ومن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟!**) انتهى كلام الذهبي